المجلس الحادي والعشرون

الوقف الصحي

المجلس الحادي والعشرون

الوقف الصحي

اعتنى الإسلام بالجانب الصحي للمسلم لذا كانت المحافظة على النفس وعدم الإلقاء بها إلى التهلكة من ضروريات دين الإسلام، كما اهتم الإسلام بغذاء المسلم وشرابه وعلاجه وتواترت النصوص الشرعية التي تحضّ المسلم على ذلك وجماع ذلك في قوله ﷻ: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١] قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: جَمَعَ اللهُ الطِّبَّ كُلَّهُ فِي نِصْفِ آيَةٍ: ﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْ﴾[١].

واستجابة لذلك فقد اهتم المسلمون بالصحة العامة اهتمامًا عظيمًا وتمثل ذلك فيما وقفوه من الأموال لإنشاء المستشفيات والدّور الصحية لعلاج الإنسان بل والحيوان.

وفي الوقت الذي كان للمسلمين من خلال الأوقاف مستشفيات وأطباء وأدوية كانت أوروبا لا تعرف النظافة ولا الصحة -كما يحدثنا التاريخ وعقلاء الغرب أنفسهم- وفيما يلي سنختار بعض الأمثلة التي تبرز الدور العظيم الذي قامت به مؤسسة الأوقاف في رعاية الصّحة من خلال إنشاء المستشفيات التي عرفت بـ «المارستانات»[٢] في الحضارة الإسلامية والتي تعني «بيت المرضى» وهذا ما يعنيه مصطلح المستشفى في الوقت الحاضر.

روى المقريزي أن أول دار أسست لمداواة المرضى في الإسلام بناها في دمشق الخليفة عبد الملك الأموي عام ٨٨هـ، وجعل فيها الأطباء وأجرى عليهم الأرزاق عن طريق الأوقاف، في حين أعطى كلُ مُقعد خادمًا يهتم بأمره، وكلُ ضرير

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير (٤٠٦/٣).

(٢) وبعضهم يسميها «البيمارسانات» وهي المشافي التي يعالج فيها المرضى.

قائدًا يسهر على راحته[١].

كما أن أول مستشفى كبير في تاريخ الحضارة الإسلامية هو المارستان الذي أمر ببنائه هارون الرشيد في بغداد، وبلغ من عناية المسلمين بالرعاية الصحية وتطوير خدماتها أن خُصصت أوقاف لبناء أحياء طبّية متكاملة[٢] حدّث ابن جبير في رحلته: أنه وجد في بغداد حيّا كاملا من أحيائها يشبه المدينة الصغيرة، كان يسمى بسوق المارستان، يتوسطه قصر فخم جميل وتحيط به الغياض[٣] والرياض[٤] والمقاصير[٥] والبيوت المتعددة، وكلها أوقاف وقّفت على المرضى، وكان يؤمُّه الأطباء والصيادلة وطلبة الطب، إذ كانت النفقات جارية عليهم من الأموال الوقفية المنتشرة ببغداد.

وتحدثت كتب التاريخ عن المستشفيات التي أنشئت في مصر بأموال الوقف فذكروا منها مستشفى أنشأه الفتح ابن خاقان وزير المتوكل على الله العباسي، ومستشفى آخر أسسه أمير مصر أحمد بن طولون، سمي باسمه، وحُبّس له من الأوقاف ما يلزم للإنفاق عليه، وبنى فيه الحمامات للرجال والنساء.

وكان من أشهر المستشفيات في العصر الأيوبيّ والمملوكيّ تلك التي أنشأها صلاح الدين الأيوبي رحمه الله[٦].

وتحدّث المؤرخون والرّحالة عن المستشفى الذي أنشأه الملك قلاوون بمصر، وجعله وقفا لعلاج مرضى المسلمين، قال عنه ابن بطوطة: «يعجز الوصف عن محاسنه، وقد أُعدّ فيه من الأدوية والمرافق الخدمية ما لا يحصى»[٧].

---

(١) ينظر: الوقف في الفكر الإسلامي، بن عبد الله، (ص١٤٥-١٦٩).

(٢) تاريخ البيمارستانات في الإسلام، الدكتور أحمد عيسى، ص ١٧٨.

(٣) شجر كثير ملتف.

(٤) البساتين.

(٥) الطرق.

(٦) ينظر: رحلة ابن جبير، ص٢٠١.

(٧) ينظر: رحلة ابن بطوطة (٢٠٣/١).

ويضيف: «وقد أقام أحمد بن طولون أول مستشفى في مصر عام ٢٥٩هـ، ومن أنظمته أن العليل إذا دخله تنزع ثيابه وتوضع عند الأمين ثم يلبس الثياب الخاصة بالمرضى ويفرش له فرش خاص به ويعالج حتى يبرأ ... أما علامة شفائه فهي أن يأكل فَرُّوجًا[١] ورغيفًا، فإذا فعل ذلك واستقر الطعام في جوفه دون ألم أو ردّة فعل أُعطي ماله وثيابه وسمح له بالانصراف، وفي حالة وفاة المريض فإنه يجهّز ويكفّن على نفقة المستشفى الذي يتوفر على صندوق وقفي"[٢].

إن العلاج النفسي في المستشفى لا يقل عن العلاج البدني لذا اهتمت المستشفيات التي قامت على الأوقاف في الحضارة الإسلامية برعاية ذوي النفوس المريضة عن طريق تلاوة القرآن الكريم والتسلية البريئة.

لقد أدرك علماء المسلمين خطورة الأمراض النفسية ووضعوا لها علاجًا وطبًا، ولعل من أهمّ الرعاية التي لقيها المرضى والمعتوهون أنه خضع لكل واحد منهم مُرافق يأخذه باللين والرفق، يصحبه في الحدائق بين الخضرة والزهور ويسمعه ترتيلًا هادئًا من كتاب الله تعالى تطمئن به القلوب وتهدأ النفوس[٣].

ومما ذكر أيضًا في أساليب العلاج النفسي:

أن يقف اثنان بمسمع من المريض وبدون أن يلحظ أن ذلك جارٍ منهما عمدًا، يسأل أحدهما الآخر عن حقيقة علّة ذلك المريض، فيجاوبه رفيقه بأنه لا يوجد في علّته ما يَشغل البال وأن الطبيب رتّب له كذا وكذا من الدواء ولا يظن أنه يحتاج إلى أكثر من كذا من الوقت حتى ينقه، وغير ذلك من الحديث الذي إذا تهامس به اثنان على مسمع عليل ثقيل الحال –وظنه صحيحًا– زاد نشاطه ونهض[٤].

---

(١) صَغير الدَّجاج من شَهْره الثَّالث إلى العاشِر.

(٢) ينظر: رحلة ابن بطوطة (٢٠٣/١).

(٣) ينظر: الوقف في الفكر الإسلامي، ابن عبد الله (ص١٤٥-١٦٩).

(٤) ينظر: من روائع حضارتنا، لمصطفى السباعي ص١٣٩.

وهكذا ينشر الإسلام نوره في الشرق والغرب ومع النور الرعاية العامة والخاصة لكل فرد من أفراد المجتمع المسلم في كل شأن من شؤونه.

ومما تحسن الإشارة إليه:

* أهمية الأوقاف الصحية والطبية وما لها من دور كبير في سدّ احتياجات المسلمين وعلاجهم.
* المساهمة في الجمعيات الخيرية المهتمة بالجوانب الصحية وإعانتها على أداء رسالتها[١].
* من المقترح إنشاء جمعيات صحية تعني بتوفير الأجهزة الطبية المنزلية مثل أجهزة قياس الضغط والسكر وأجهزة التنفس وأجهزة غسيل الكُلى وأجهزة العلاج الطبيعي ونحوها.
* كما أن من صور الوقف المتاحة أن يوقف بعض ملاك المستشفيات نسبة منها معلومة ويصرف ريعها في وجوه البر والإحسان أو يعالج بهذه النسبة من لا يجد قيمة العلاج من المرضى المحتاجين.

(١) مثل جمعية أطباء حول العالم، وجمعية زمزم للخدمات الصحية التطوعية الخيرية، والجمعية الخيرية الصحية «عناية» وغيرها...